الشعر الحر الجزائري

"الشعر الحر "عبارة تطلق للإشارة إلى نوع من الكتابة الشعرية التي عرفتها المؤلفات الفنية على المستوى العالمي والعربي، حيث بدأت بوادره الأولى منذ نهاية القرن التاسع عشر بينما ظهرت المحاولات الأولى عند شعراء العالم العربي في الثلاثينيات من القرن الماضي حين هبّت رياح التجديد لتحطم ذلك الانضباط في الشكل المتناظر المتعارف عليه أنفا وسرعان ما انساق الشعراء المعاصرون نحو هذا الشكل الجديد، وراحوا يفتشون عن طريقة تخلصهم من القالب العمودي الصارم حيث تصبح العبارات أكثر حيوية والصور أغنى دلالة، وتلك هي المبادئ الأولية التي دعا إليها الشعراء العراقيون وعلى رأسهم -نازك الملائكة- التي صرحت بذلك في قولها : **"لقد وجد الشاعر الحديث نفسه محتاجا إلى الانطلاق من هذا الفكر الهندسي الصارم الذي يتدخل حتى في طول عباراته وليس هذا غريبا في عصر يبحث عن الحرية ويريد أن يحطم القيود ويعيش ملء مجالاته الفكرية والروحية ، الواقع أن إحدى خصائص الفكر المعاصر أنه يكره النسب المتساوية ويضيق بفكرة النموذج ضيقا شديدا"**، ولا يبتعد الدكتور إحسان عباس عن هذا القول حين يعرب عن وجهة نظره في قضية الشعر الحر حيث قال **" وقد أصبح من المعروف أن الرواد العراقيين نازك والسياب والبياتي كانوا هم رسل هذه الثورة بتأثير من الشعر الإنجليزي وكانت ثورتهم في شكلها الأولي تهدف إلى الانزياح بالكتابة الشعرية نحو الحياة المعاصرة والتملص من رتابة القافية الواحدة والتنويع في عدد التفعيلات"**، ومن ناحية أخرى فإن الشعر كظاهرة تعبيرية لا يثبت أمام الإنسان المتغير في مثله وتقييمه لظواهر الوجود فلا بد أن يواكبه بطنا وسرعة عمقا وسطحية تركيبا وبساطة، وهذا ما جعل التجربة الجمالية للشعر المعاصر تنطلق من فرضية "أن الفلسفة الجمالية لهذا الشعر تختلف اختلافا جوهريا عن الفلسفة القديمة وذلك لأنها تنبع من صميم طبيعة العمل الفني ولا تخضع لمبادئ خارجية مفروضة ،فالشعر المعاصر يصنع لنفسه جمالية متفردة من حيث الشكل والمضمون على حد سواء، وفي تحقيق تلك الجماليات يتأثر كل التأثر بحساسية العصر وذوقه ، ولقد كان من الطبيعي أن يتأثر الشعراء الجزائريون بالطريقة الجديدة في النظم بحكم اتصالهم الدائم بالشعراء على اختلاف جنسياتهم وثقافتهم خاصة شعراء المشرق منهم.

- **دوافع نشأة القصيدة الحرة الجزائرية**: تجدر في البداية الإشارة إلى أهم الدوافع التي جعلت الشعراء الجزائريين يتجهون إلى هذا النوع الجديد من النظم، وينأون عن القصيدة العمودية التي شهدت تعلقهم وشغفهم بها ردها من الزمن، وعلى رأس تلك الأسباب احتكاك الشعراء الجزائريين الدائم بنظرائهم في المشرق العربي خاصة المغتربين منهم هؤلاء الذين نادوا بتحرير القصيدة العربية من قيود الشعر العمودي والبحث عن شكل هندسي جديد يواكب الحياة المعاصرة **"لأن ارتباط الشاعر الجديد بأحداث عصره وقضاياه يتجاوز ارتباط المتفرج الذي يصف ما يشاهد ،إنه يعايش تلك الأحداث بل إنه**

صاحب تلك القضية الذي يحاول استكناه الحياة لا مجرد الانفعال بها"، وندرج في هذا الصدد قول "أبي القاسم سعد الله" : **"كنت أتابع الشعر الجزائري منذ(1947) باحثا فيه عن نفحات جديدة وتشكيلات تواكب الذوق الحديث ، ولكني لم أجد سوى صنم يركع أمامه كل الشعراء ينغم واحد وصلاة واحدة ، غير أن اتصالي بالإنتاج القادم من الشرق لا سيما لبنان ، واطلاعي على المذاهب الأدبية والمدارس الفكرية والنظريات النقدية حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلص من النظرية التقليدية في الشعر"** كما أنه لا يمكن بأي حال إغفال التأثير النفسي الذي لعبته تلك الظروف السائدة آنذاك في نفوس هؤلاء الشعراء وفي جميع المجالات الاجتماعية والسياسية خاصة تلك الفترة الحرجة التي عاشتها الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، **"إذ لم يتوان هؤلاء الشعراء في البحث عن تنغيم جديد يستبدل الشكل العمودي بالشكل الحر الذي يصور إحساس صاحبه وراحوا يوزعون التفعيلات على الأسطر الشعرية حسب الحاجة إلى ذلك ودونما تقيد بعدد ثابت بل وفقا لتموجات النفس العفوية التي يبحث عنها سلفا"**، ويتفق معظم الباحثين المؤرخين لبداية الشعر الحر الجزائري على أن البوادر الأولى لهذا الاتجاه كانت في محاولات الشاعر "رمضان حمود" في عام (1928) المجمدة في نص(**يا قلبي**) ولعل ما جعلها تصنف ضمن الشعر الحر **"كون صاحبها اعتمد على التعدد في الأوزان والتنوع في القوافي بل إنها تشمل على مقاطع لا تنتمي إلى بحر واحد من بحور الخليل المعروفة، ولقد عكست هذه القصيدة دعوات (رمضان حمود) لمتكررة إلى أن يكون المقياس الحقيقي للحكم على الشعر هو الصدق الفني ولو جاء ذلك في قالب نثري"**، "ولكن الانطلاقة الرسمية لهذا الاتجاه قد كانت على يد الشاعر : "أبو القاسم سعد الله" الذي جسد تبنيه للشكل الحر من خلال قصيدته : "طريقي" وقد نشرت في جريدة البصائر سنة 1955.

- **<u>مراحل تطور القصيدة الحرة في الشعر الجزائري</u>**: لقد مرت القصيدة الحرة الجزائرية بثلاث مراحل مهمة جسد فيها الشعراء المعاصرون رغبتهم في التأسيس الفعلي لهذا المذهب الشعري الجديد عن طريق محاولات جادة تتفاوت درجاتها من حيث التقليد والإبداع:

1- **<u>المرحلة الأولى - مرحلة التحول(1960-1954):</u>** إن الدوافع النفسية والظروف الاجتماعية التي كست هذه الفترة الزمنية جعلت الشعراء يفتشون عن بديل للقصيدة العمودية قصد التعبير عن ميلهم إلى التغيير تزامنا مع اندلاع الثورة التحريرية المباركة التي يمكن اعتبارها الدافع الأساسي لكتابة الشعر الحر، ولا نغفل تأثرهم بالشعر العربي الوافد من المشرق العربي مثل(**عبد الوهاب البياتي وصلاح عبد الصبور**)"ولكنهم اتجهوا في البداية اتجاها وجدانيا وراحوا يكتبون القصيدة ذات القوافي المتراوحة والمقاطع المتعددة كما فعل أمثال : **رمضان حمود، أحمد الغوالمي ،سعد الله ،وأبو القاسم خمّار**

وغيرهم"،ولقد شهدت هذه المرحلة ظهور أولى البواكير للشعر الحر وهي قصيدة طريقي لأبي القاسم سعد الله، حيث يقول في جزء منها : **يارفيقي لا تلمني عن مروقي**

فقد اخترت طريقي

وطريقي كالحياة

إذ يبدي الشاعر فيها تبنيه للمذهب الحر من خلال تخليه عن **نظام الشطرين** واستبداله **بالأسطر الشعرية** التي تطول حينا وتقصر حينا آخر، لقد فتحت هذه القصيدة باب التجديد أمام عديد الشعراء الذين نظموا على منوالها أمثال : **السائحي، وأحمد الغوالمي وعبد السلام حبيب**.....، حيث تتشابه منجزات هؤلاء الشعراء وتتفق أفكارهم حول ضرورة التغيير في الإطار الشكلي واعتماد القصيدة الحرة لتجسيد الرغبة في تحرير الذات الشاعرة من قيودها، ولعل أهم الأسباب الكامنة وراء تأخر ظهور الشعر الجديد بصورة ناضجة في الشعر الجزائري "هو تممتك الشعراء بكل ما يحافظ على الشخصية الوطنية ولذلك وجب عليهم أن لا يخرجوا عن مقاييسه الموروثة لان ذلك شكل من أشكال طمس الهوية الوطنية"12

المرحلة الثانية- مرحلة الركود (1962-1962) : تزامنت هذه الأخيرة و فترة الاستقلال التي خيم عليها الصمت الرهيب عند مجموعة من الشعراء حيث عرفت ركودا واضحا في ساحة الأدب نتيجة الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة غداة الاستقلال، وذلك ما تؤكده الدراسات النقدية للحركة الشعرية خاصة، وصرح به "أحمد الغوالمي" في قوله : "إننا كنا نهاجم به (الشعر) الدخيل وأذنايه وتدافع عن كيان الأمة في تحرير وطنها لغتها ودينها كنا نهدم كل وضعية يريد الاستعمار أن يجعلها قانونا لنا ،أما اليوم فلم نجد ما تحارب به "، وهنا نحسب أن الدافع الذي كان يحفز الشعراء على قول الشعر ويلهب مشاعرهم خلال فترة الثورة قد زال بعد استرجاع الحرية، ونتيجة لذلك فقد الشاعر عنصر التحدي بعد الهزام الخصم، وهناك أسباب أخرى لانسحاب الشعراء الرواد من الميدان الشعري نتيجة لظروف خاصة، فمنهم من انصرف إلى البحث العلمي ومنهم من واصل دراسته الأكاديمية، فسعد الله مثلا توجه إلى البحث العلمي وانكب على التدريس بالجامعة على غرار أقرانه .ثم إن الثورة التحريرية كانت من أهم الدوافع التي دعمت التيار الحر و بانتهائها خمدت الكتابة الشعرية فترة من الزمن.

3-المرحلة الثالثة- مرحلة الاستفاقة والتحرر (1970-1962) : شهدت هذه المرحلة ظهور جيل جديد من الشعراء الذين نما وعيهم وتشبعوا بمبادئ الشعر الحر خلال المرحلتين السابقتين وراحوا يفرضون أنفسهم في الأوساط الأدبية "واستطاعوا استحداث ما اصطلح عليه ب:**سحر النص الشعري السبعيني وجاذبيته-** بوساطة النزوع نحو توحيد مضامين القصيدة المستوحاة من واقع التحولات السياسية والاجتماعية في ظل المذهب الاشتراكي، حيث واكب هذا المشروع تحول الممارسة الشعرية من

الرومانسية إلى الواقعية ". وتجدر الإشارة هاهنا إلى أن المرحلة الثالثة من عمر الشعر الحر الجزائري قد عرفت ظهور أسماء جديدة لم تكن معروفة في ساحة النظم من قبل وتباينت رؤاهم حول الشعر الحر فمنهم من راح يراوح بين الشكلين العمودي والحر ويحاول التجديد فيهما أمثال (**مصطفى الغماري**) (**محمد بن رقطان**)(**عبد الله حمادي**) و(**أزراج عمر**) و(**أحلام مستغانمي**) وغيرهم، ولكن الاتجاه الحر لم يستطع أن يفرض نفسه في تلك الفترة نظرا للظروف السائدة آنذاك ، ولأن طبيعة اللغة الشعرية التي اعتمدها هؤلاء الشعراء لم تكن ذات صلة بثقافة المتلقي الذي ألف الشعر العمودي واللغة الجزلة ولم يتقبل غيره.

دخلت الساحة الشعرية في صراع بين أنصار الشعر الحر وأنصار الشعر العمودي وهذا ما أعطى لشعراء القصيدة الجديدة دفعا لتكوين ذواتهم فتيا، والمتتبع لهذه الحركة الجديدة في الشعر الجزائري يلحظ بأنها محاكية للشعر الحر في المشرق ومتأثرة به إلى درجة انتشار ما عرف بقصيدة النسخة بالرغم من أن شعراء الشكل الجديد في القصيدة الجزائرية حاولوا إظهار شخصيتهم الشعرية الذاتية من خلال إظهار أبعاد الكفاح الجزائري وظروف مجتمعه"، وما إن بزغ فجر المتبعينيات حتى برزت معه فئة من الشعراء الشباب الذين لم يسبق لهم عهد بالقصيدة العمودية وإنما تشبعوا بشعر التفعيلة وراحوا ينظمون على منواله ،"وقد جسدت كتاباتهم تبتيهم لتقنيات الشعر الحر، والجدير بالذكر أن شعراء هذه المرحلة ومن جاءوا بعدهم أحدثوا قطيعة بينة مع الشكل العمودي وتقموا على المتمسكين به"، وفي هذا السياق لا بد أن نشير إلى أن هناك العديد من الشعراء الذين اختاروا خلق التميز ولم يكتفوا بالرافد المشرقي بل حاولوا الانفتاح على الشعر الغربي على تعدده واختلافه، إضافة إلى ما تمتلكه هذه الذات من مؤهلات خاصة وطبيعة ترفض الانقياد لسلطة السائد وسيطرته".

لقد عمد هؤلاء الشعراء الجدد إلى التجديد في اللغة الشعرية التي يكتبون بها وحرصوا على أن تقترب قدر الإمكان من ذائقة المتلقين على اختلاف ثقافتهم، ومنهم من راح ينظم باللغة العامية بحجة التجديد الذي يفرض على الشاعر أن ينظم بلغة تقترب من لغة الحياة اليومية ليفهمها عامة الناس واتكأوا على صور ورموز شعرية مستوحاة من ديانات مختلفة كما فعل **أزراج عمر**)و(**عبد العالي رزاقي**) و(**أحلام مستغانمي**)و(**أحمد حمدي**). وسرعان ما تفطن شعراء الثمانينات على ضوء الدراسات النقدية الحديثة إلى ضرورة إفراز قصيدة جزائرية حديثة من حيث المبنى والجوهر وظهرت في شكل أكثر نضوجا واكتمالا عند مقارنتها بالمرحلة السابقة على يد ثلة من الشعراء تذكر منهم(**مصطفى دحية**)و(**عبد الله حمادي**) و(**يوسف وغليسي**) و (**عز الدين ميهوبي**.... وقد كانت الحركة النقدية محركا أساسيا في هذا التطور الذي شهده الشعر الحر. وتجدر الإشارة هاهنا إلى ظهور مذهب شعري آخر نادى بالتخلي عن الوزن الشعري نهائيا لتصبح الكتابة الشعرية والنثرية على حد سواء كما فعل

(**عبد الحميد بن هدوقة**) في (**أرواح شاغرة**) و**جروة علاوة** وهبي و**عبد الحميد شيكل**، ولكن هذا التيار لم يستطع فرض وجوده في الساحة الشعرية، ونقرأ في هذا الصدد تعليق الدكتور محمد ناصر على هذا النوع الأدبي "، ولا نكاد نجد فيه إنتاجا يستوجب التقييم أو التنويه لضعفه الفني ولعل إمكانية إدراجه في النثر أصوب من إدراجه في الشعر ذلك لأن هذا التيار لم يصادف نجاحا ولا قبولا من طرف الشعراء وإنما هو يحاول أن يجد الأرضية التي يقف عليها بعد أن أخفق في إثبات ذاته في المشرق العربي". "ومما لاشك فيه أن حساسية الإبداع دفعت الشعراء إلى مرافعات على سبيل الثبوت لا على سبيل الحدوث من أجل دعامة هذا التيار أو ذاك . وعلى العموم فإن قضية التجديد في الأشكال الشعرية عرفت اختلافا كبيرا بين الشعراء، لكن الحركة الشعرية الشابة استطاعت أن تواكب حركة الأدباء الشباب في الوطن العربي كما أنها تمكنت من أن تشكل رافدا جديدا للحركة الشعرية الجديدة و أن سمة التطور تطبع هذه الحركة التي تبحث باستمرار عن الأشكال والرؤى الأكثر ملاءمة للتعبير عن طبيعة المرحلة التي تعيشها البلاد".

ثالثا -ملامح التجديد عند أبي القاسم سعد الله : يعد الشاعر الجزائري (**أبو القاسم سعد الله**) من أوائل الشعراء الذين جنحوا إلى تبني الشعر الحر كما سبقت الإشارة إليه آنفا، فقد كان من الشعراء الجزائريين الرواد الذين سارعوا إلى اعتماد الشكل الحر وصرحوا بذلك علانية في عديد المناسبات وهذا ما تلمسه عند الوقوف على قصيدته " **طريقي**" التي تمثل الشرارة الأولى التي أعلن بها مروقه عن الشكل العمودي المألوف حيث يقول فيها : **يارفيقي لا تلمني عن مروقي**

فقد اخترت طريقي

وطريقي كالحياة

"لقد صور الشاعر الطريق الذي اختاره، إنه طريق الكفاح المجيد الذي آثره عن بقية الطرق ودعا أصحابه للانضمام إلى هذا الكفاح في سبيل نصرة الوطن والظفر بالحرية والقصيدة في عمومها ككل تعبر عن الغضب الثوري وهذا ما يلمسه المتأمل في معجم المفردات في هذه الأسطر، لكن و بالرغم من محاولة الشاعر تجسيده لمبادئ الشعر الحر من الناحية الشكلية في هذه القصيدة إذ استبدل الشطرين المتناظرين بأسطر شعرية تطول حينا وتقصر حينا آخر، إلا أنه لم يستطع التخلص من الروي المتكرر في كل مجموعة من الأسطر المتتالية ،حيث قسم قصيدته إلى سبع مقطوعات تحتوي كل مقطوعة على عشرة أسطر شعرية وهذا يشير إلى أن الشاعر لم يتحرر كليا من القالب العمودي لقد نسج الشاعر هذه القصيدة على وزن (**الرمل**) الذي تتناسب تفعيلته(**فاعلاتن**)السريعة المتكررة مع الحالة الشعورية الثائرة المتوترة والقلقة التي يعانيها الشاعر جزاء ثورته على كل ما هو تقليدي. ولكن هذه القصيدة تثبت أنه لم

يكن من السهل عليه التخلي عن الشكل المتناظر الذي ألفه ردها من الزمن كما أن معجمه الشعري لا يزال مرتبطا بالقصيدة العمودية التي تقاس جودتها بندرة مفرداتها وليس ذلك بالأمر الغريب إن نحن تتبعنا مفهوم التجديد عنده حيث كانت له رؤية خاصة حوله وفي هذا الصدد نقرأ قوله : **"ولكن التجديد وحده لا يكفي، فالخروج عن مألوف الوزن والقافية وحتى عن الموضوعات والتصورات والتمرد عن القواعد النحوية والصرفية قد تجعل من الشاعر مهرجا ولكنها لا تجعل منه شاعرا خالدا"**. إن المتأقل في ديوانه ليلفي هذه الخاصية عنده في مجموعة من القصائد الأخرى، خاصة تلك التي نظمها إبان فترة الاستعمار الفرنسي كقوله : **اسألوا الطرس كم أرفض شهابا ورضايا، واسألوا الأنس كؤوسا وحبابا واسألوا الشعب شيوخا وشبابا واسألوا الفكر رسولا وكتابا والأماني المترعات والنفوس الحائرات بالظنون واليقين.....**

ولا شك في أن الممخص لهذه الأسطر سيلاحظ اعتماد الشاعر على التنويع في أواخر القافية في كل مرة عن طريق تغيير حرف الروي الأخير فيها بعد كل مجموعة من الأسطر المتتالية، ولا تزال لغته الإيقاعية فيها مرتكزة على تفعيلات بحر " الخفيف" دون المزج بينها وبين تفعيلات البحور الأخرى،لكن الشاعر سرعان ما بدأ بالتخلي عن تلك السمة المعهودة عنده في تكرار الروي إذ أصبحت قصائده أكثر تحررا وانطلاقا تماشيا مع صوره الجديدة، ويجسد ذلك قوله :.**وفضت الغلاف في اضطراب أناملا معروقة سمراء تفوح بالدهان والعرق**

وكان وجهها خطوط وقلبها بخور

وشعرها خميلة جرداء

إن هذه الأبيات لتجسد سعي الشاعر إلى التحرر أكثر في لغته الشعرية حيث إنه يتخلى عن تكرار الحرف الأخير من كل قافية ويعتمد على ظاهرة الغموض في تصوير المشهد المهم الذي ينبغي على قارئه أن يشد بين أطراف الصورة ويعيد قراءتها مرات عديدة ليدرك مقاصدها و لتكثيف الدلالة أكثر راح الشاعر يباعد بين أطراف التشبيه ليخرجه من دائرة النمطية المعهودة، ثم إنه لم يتقيد هذه المرة ببحر واحد بل مزج بين المتقارب والخفيف. ولا يبتعد سعد الله عن غيره من الشعراء المعاصرين الذين يشعرون بتجاربهم شعورا مميزا يجعل أداءه التعبيري يعتمد على نسق معقد في استخدام المعجم الشعري الذي يجسد هذا الإحساس قصد دفع المتلقي إلى مشاركة همومه الذاتية ، ومن مظاهر التجديد عند سعد الله في قصيدته الحرة اعتماده على ظاهرة التشخيص" التي تبعث الحياة في كل ساكن وتلك ميزة طبعت العديد من قصائده كقوله : **يبيت في كيانه... ليل ممزق الضياء**

"فالعلاقة الحميمة مابين اللفظة والفكرة تنشئ العالم الشعري عند الشاعر الذي يلتمس خبرته من المحسوسات الخارجية لكنه يظل في حنين دائم إلى عالمه الشعري الذي يعكف عليه مرات ومرات ويرتاده ليخلق صوره، ويتضح من خلال توظيف الشاعر لهذه الرموز المتصلة **(ليل- ضياء- نجوم)** أنه يهدف إلى تعميق الدلالة التصويرية المقصودة، إذ يحتاج القارئ إلى إمعان التفكير لفهم الدلالة المقصودة **من الليل الممزق)**و**(مأتم بيضاء)** وتلك خاصية الغموض التي سعى إليها الشاعر ليكثف دلالة الصورة الشعرية الكلية. ويتبدى للقارئ من خلال هذه النماذج كيف أن القصيدة الحرة عند سعد الله قد مرت بعدة مراحل إلى أن بلغت مرحلة النضج، حيث راح يتخلى تدريجيا عن الروي المتكرر والصور النمطية المألوفة والألفاظ المبهمة، وهذا ما يعكس سعيه لتحقيق مبدا التحرر في شعره شكلا ومضمونا.

تأثر الشعراء الجزائريون المعاصرون بدعوات التحرر الشعرية التي نادى بها شعراء المشرق أمثال نازك الملائكة والسياب.وغيرهم...غير أنهم اختلفوا في درجات تجسيد هذا التحرر في كتاباتهم الشعرية، فمنهم من اتسمت محاولاته بالتردد واقتصر على تغييرات طفيفة في اللغة الشعرية التي يكتب بها ، ومنهم من جسد تحرره الشعري وأعلن القطيعة عن كل ماسبق، لقد مرت القصيدة الحرة الجزائرية بثلاث مراحل مهمة شهدت خلالها محاولات عديدة لتكوين صورة خاصة بالشعر الحر الجزائري، إذ شهدت **المرحلة الأولى** نشاطا واسعا في النظم بفضل الظروف السياسية والاجتماعية تزامنا مع الثورة التحريرية ، بينما شهدت **المرحلة الثانية** ركودا واضحا نتيجة انقطاع الشعراء عن النظم ولكن سرعان ما استفاق هؤلاء الشعراء بعد **انتعاش الحركة النقدية** المهتمة بالكتابات الشعرية.